ويتخطّاه إليها» قال سيبويه : كسب أصاب، واكتسب : تصرّف واجتهد(١).

فقد احتملوا : لاحظ العلماء بشأن حَمَل واحتمل الفروق الّتى لاحظوها بشأن كسب واكتسب. جاء في قصيدةٍ للنّابغة الذّبيانى يهجو فيها شخصاً حثّه على الغدر ونقض العهد :

إنّا اقتسمنا خُطّتينا بيننا ** فَحَمَلْتُ بَرَّةَ واحتملتَ فَجار(٢)

بَرَّة : اسم للبِرّ. وفجار : اسمٌ للفجور. وهما معرفتان من أعلام الأجناس(٣) عبّر عن البَرّة بالحَمْل، وعن الفَجْرة بالاحتمال، لأنّ حَمْل البَرّة بالإضافة إلى احتمال الفَجْرة أمرٌ يسيرٌ ومستصغَر(٤).

بهتانا : حقيقة البهتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه. والغيبة أن يقال في الإنسان ما فيه. وهذا المعنى قد جاء في صحيح الحديث عن النّبيّ ﷺ(٥) والبهتان أفحش الكذب(٦) الّذى يَبْهَتُ سامعه لفظاعته، أي يجعله يَدْهَش ويتحيّر (٧)يقال بَهَتَ الرّجل يبهَتُه بَهْتاً وبَهَتاً وبُهْتاناً، فهو بَهّات أي قال عليه ما لم يفعله فهو مبهوت(٨).

وإثماً مبينا : وإثماً يبين لسامعه أنّه إثمٌ وزور(٩).

إنّ الّذين يؤذون الله تعالى بإشراك غيره معه في العبادة الّتى يستحقّها هو وحده عزّ وجلّ دون سواه، وأتوا المعاصى وارتكبوا الآثام، ويؤذون محمّداً ﷺ

---

(١) لسان العرب : «كسب».

(٢) مختار الشّعر الجاهلى ١/١٦٦ تحقيق مصطفى السّقا.

(٣) مختار الشّعر الجاهلى ١/١٦٦.

(٤) لسان العرب : «حمل».

(٥) تفسير القرطبى ٤٥٩٧.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/٣٣.

(٧) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «بهت».

(٨) لسان العرب : «بهت».

(٩) تفسير الطّبرى ٢٢/٣٣.

كأن يقول بعضهم سوف نتزوّج فلانة، ويسمّى واحدةً من أمّهات المؤمنين، بعد محمّد ﷺ، يستحقّون أن يطردهم الله تعالى من رحمته في الأولى والآخرة، وأعدّ لهم عذاباً مهيناً في الأولى والآخرة.

والّذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا من سيّئات وتجشّموا من آثام فقد احتملوا وتكلّفوا احتمال البهتان العظيم، والكذب الفاحش الصّريح، والإثم المبين، والفحش الكبير.

عن أبي هريرة أنّه قيل : يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال : ذكرك أخاك بما يكره. قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته. وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتّه[1] وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : أيّ الرّبا أربى عند الله؟ قالوا : الله ورسوله أعلم. قال : أربى الرّبا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم، ثمّ قرأ : ﴿والّذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾[2].

ومن الواضح الانسجام الصّوتيّ في الآية الكريمة بين جملتي : «اكتسبوا» و : «احتملوا» ومن البيّن أنّ الآية الكريمة الأولى تتحدّث عن الّذين يؤذون الله تعالى ورسوله ﷺ وترتّب على النّوعين من الأذى نوعين من العقاب، وأنّ الآية الكريمة الثّانية تتحدث عن الّذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات وترتّب على النّوعين من الأذى نوعين من العقاب.

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٧٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٧٠.

(٦)
(المنافقون والكافرون ملعونون في الدّنيا والآخرة)
الآيات (٥٩ ـ ٦٨)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾

يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ : الجلاليب جمع جِلباب. والصّحيح أنّه الثّوب الّذى يستر جميع البدن. وفي صحيح مسلم عن أمّ عطيّة قلت : يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب؟ قال : لِتُلْبِسْها أختها من جلبابها(١).

ذلك أدنى أن يُعْرَفن فلا يؤذين : إدناؤهنّ جلابيبهنّ إذا أدنينها عليهنّ أقرب وأحرى أن يُعْرَفْنَ ممّن مررن به ويعلموا أنهنّ لسن بإماء فيتنكّبوا عن أذاهنّ بقولٍ مكروه أو تعرّضٍ بريبة(٢).

وكان الله غفوراً : لما سلف منهنّ من تركهنّ إدناءهنّ الجلابيب عليهنّ(٣).

رحيماً : بهنّ أن يعاقبهنّ بعد توبتهنّ بإدناء الجلابيب عليهنّ(٤).

تنادى الآية الكريمة النّبيّ الكريم ﷺ وتأمره بأن يقول لزوجاته أمّهات المؤمنين ولبناته الطّيّبات الطّاهرات ولنساء المؤمنين عموماً أن يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ ويرخين على أبدانهنّ من الثّياب ما يستر جميع البدن. إنّ ذلك الإدناء للجلابيب والسّتر لجميع الجسد أحرى أن يُعْرَفن بسببه أنّهن حرائر فلا يؤذيهنّ الّذين في قلوبهم مرض شهوة الزّنا، ظنّاً منهم أنّهنّ من الإماء، اللّاتى اعتدن في الجاهلية وصدر الإسلام التّبرّج، فيغرين مرضى القلوب، بالتّعرّض لهنّ بالإيذاء.

وكان الله تعالى غفوراً لما سلف منهنّ من تركهنّ إدناء الجلابيب عليهنّ.

---

(١) تفسير القرطبى ٥٣٢٥.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٤.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٤.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٤.

رحيماً بهنّ أن يعاقبهنّ بعد توبتهنّ بإدناء الجلابيب عليهنّ.

ومعروفٌ أنّ الإسلام شرّع للعتق ولم يشرّع الرّقّ فقد كان الرّقّ قانوناً عالميّا. والإسلام وَحْدَه هو الّذى رفع الرّقيق من مستوى الأشياء إلى مستوى الإنسان. وما لبث الإماء في المدينة المنوّرة أن اندمجن في المجتمع المسلم وذبن فيه وأصبحن جزءاً لا يتجزأ منه. وهكذا أصبح المجتمع المسلم في كلّ مكانٍ رمزاً للطّهر والعفاف.

ويؤمر عليه الصّلاة والسّلام أن يبدأ بأمر زوجاته وبناته الطّيّبات الطّاهرات. وهذا درسٌ للدّعاة أن يبدأوا بأنفسهم وبمن يعولون كي تتحقّق الأسوة الحسنة الأبلغ أثراً من كلّ قول وموعظة.

وواضحٌ أنّ الجلابيب عبارةٌ عن الثّياب الّتى تغطّى جميع البدن. وسبق أن نهت الآية الكريمة الحادية والثّلاثون من سورة النّور المؤمنات عن إبداء زينتهنّ إلاّ ما ظهر منها، وأمرتهنّ بأن يضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ. والخُمُر جمع خِمار، وهو ما يغطّى رأس المرأة، فهو بمنزلة العمامة من الرّجل.

إنّ على المرأة المسلمة أن تضرب بخمارها على جَيْبها، وأن تغطّى بفضل خمارها عنقها وجَيْب[1] فستانها الّذى تُدْخِل منه رأسها حينما ترتدى الفستان كيلا يظهر شيءٌ من صدرها. وهكذا تكون المرأة المسلمة مستورةً ولا يبدو منها لغير المحارم إلاّ زينتها الظّاهرة، على نحو ما مرّ بنا في تفسير الآية الكريمة من سورة النّور.

---

(١) الجيب من الجَوْب بمعنى القطع. والجيب الموضع المقطوع من الفستان الّذى تدخل الأنثى فيه رأسها حينما ترتدى الفستان.

لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ
بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ
أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي
الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

والّذين في قلوبهم مرض : يعنى ريبةً من شهوة الزّنا وحبّ الفجور(١).

والمرجفون في المدينة : الإرجاف الكذب الّذى كان نافقه أهل النّفاق(٢) فكانوا يقولون : جاء الأعداء، وجاءت الحروب، وهو كذبٌ وافتراء(٣).

لنغرينّك بهم : لنسلّطنّك عليهم(٤).

ثمّ لا يجاورونك فيها إلاّ قليلا : ثمّ لننفينّهم عن مدينتك فلا يسكنون معك فيها إلاّ قليلاً من المدّة والأجل حتّى ننفيهم عنها فنخرجهم منها(٥).

ملعونين: مطرودين منفيّين(٦) حال من فاعل يجاورونك منصوبة(٧).

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٤.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٧١.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٤.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٤.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٥.

(٧) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٢٨٣ وتفسير ابن كثير ٦/ ٤٧٢.

أينما ثُقفوا : حيثما لُقُوا من الأرض[1].

أُخذوا : لذلّتهم وقلّتهم[2].

وقتّلوا تقتيلا : وقُتّلوا لكفرهم بالله تقتيلا[3].

سنّة : مفعول مطلق لفعلٍ محذوف أي سنّ الله ذلك سنّة[4].

في الّذين خلوا من قبل : من الأمم الماضية في منافقيهم المرجفين المؤمنين[5].

ولن تجد لسنّة الله تبديلا : ولن تجد يا محمّد لسنّة الله الّتى سنّها في خلقه تغييرا، فأيقن أنّه غير مغيّرٍ في هؤلاء المنافقين سنّته[6].

لئن لم ينته المنافقون عن نفاقهم، والّذين في قلوبهم ريبةٌ من شهوة الزّنا وحبّ الفجور عن عملهم على شيوع الفاحشة، والمرجفون في المدينة عن إذاعتهم الأراجيف والأكاذيب بزعمهم أنّ الأعداء قادمون وأنّ سرايا المؤمنين قد قتلوا أو هزموا، لنسلّطنّك يا محمّد عليهم، ثمّ لا يجاورونك في المدينة ولا يسكنون معك فيها إلاّ قليلاً من الوقت حتّى نحرجهم منها وننفيهم عنها.

إنّهم ملعونون مبعدون ومطرودون من رحمة الله تعالى. أينما وُجدوا أُخذوا أخذاً عنيفاً، وقتّلوا لكفرهم بالله تعالى تقتيلا موصولاً شديدا.

هذه هي سنّة الله تعالى وهذا هو حكمه النّافذ في منافقى الأمم الماضية، وهذا هو حكم الله تعالى في المنافقين والّذين في قلوبهم شهوة الزّنا، والمرجفين في مدينة رسول الله ﷺ، ولن تجد يا محمّد لسنّة الله تعالى تغييرا، ولن تجد أيّها الإنسان لحكم الله تعالى تبديلا.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٧٢.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٥.

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٢٨٣.

(٥) الجلالين.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٥.

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾

يسألك النّاس عن السّاعة : يسألك النّاس يا محمّد عن السّاعة متى هي قائمة(١).

وما يدريك لعلّ السّاعة تكون قريبا : وما أشعرك يا محمّد لعلّ قيام السّاعة يكون منك قريباً، قد قرب وقت قيامها ودنا حين مجيئها(٢).

يسألك يا محمّد النّاس عن وقت قيام السّاعة. قل يا محمّد إنّما علم قيام السّاعة عند الله تعالى. وما يدريك يا محمّد لعلّ السّاعة تكون منك قريبا، قد قرب وقت قيامها ودنا مجيئها. ومعروفٌ أنّ كلّ آتٍ قريب. ومعروفٌ أنّه بمرور اللّيالي والأيّام، وانقضاء الشّهور والأعوام، يقرب البعيد.

وهذا المعنى جاء في سورة الأعراف المكّيّة في قول الحقّ جلّ وعلا(٣) : ﴿يسألونك عن السّاعة أيّان مُرْساها. قل إنّما علمها عند ربّي لا يُجلّيها لوقتها إلاّ هو. ثَقُلَتْ في السّماوات والأرض. لا تأتيكم إلاّ بغتة. يسألونك كأنّك حَفِيٌّ عنها. قل إنّما علمها عند الله ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾.

وهكذا ينال الكافرون نصيبهم من الحديث بعد المنافقين بفئاتهم.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٢/ ٣٥.

(٢) تفسير الطّبري ٢٢/ ٣٥.

(٣) سورة الأعراف ١٨٧.

إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ
لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ
وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا
فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ
وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

سعيرا : ناراً شديدةً يدخلونها(١) .

يوم تُقَلَّب وجوههم في النّار : لا يجد هؤلاء الكافرون وليّاً ولا نصيراً في يومٍ تُقَلَّب وجوههم في النّار حالاً بعد حال(٢) .

أطعنا سادتنا : يعني الأشراف(٣) .

وكبراءنا : يعني العلماء(٤) .

آتهم ضعفين من العذاب : أي بكفرهم وإغوائهم إيّانا(٥) .

إنّ الكافرين بالله تعالى وبرسوله ﷺ المستهزئين بيوم القيامة لعنهم الله تعالى وطردهم من رحمته في الأولى والآخرة وأعدّ لهم ناراً شديدةً يصلون حرّها ويدخلونها . خالدين في تلك النّار أبداً، لا يجدون وليّاً يتولى شئونهم ويرعى مصالحهم، ولا نصيراً يصرف العذاب عنهم أو يخفّفه . إنّهم لا يجدون وليّاً ولا نصيراً في يوم القيامة الّذى تتقلّب فيه وجوههم في النّار يقولون بعد فوات

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٧٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٧٣ .

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٧٣ .

الأوان : يا ليتنا أطعنا الله تعالى فلم نشرك به شيئاً، وأطعنا الرّسول محمّداً ﷺ فأسلمنا وعملنا صالحاً ودخلنا جنّات النّعيم. وقال الكافرون متبرّئين من أئمّة الضّلال الّذين انحرفوا بهم عن الصّراط المستقيم : يا ربّنا إنّا أطعنا في الحياة الدّنيا أشرافنا الكافرين وعلماءنا الضّالّين المضلّين، فأضلّونا عن سواء السّبيل والصّراط المستقيم. ربّنا آتهم ضعفين من العذاب لكفرهم وصدّنا عن سواء السّبيل، وضلالهم وإضلالنا. ربّنا والعنهم لعناً كبيرا، وأبعدهم من رحمتك بعداً شديدا، بسبب كفرهم وصدّهم عن سبيلك.

(٧)

(ثـــواب المؤمنين والمـؤمنات الّـــذين يطيعـــون الله ورســـوله عظيـــم، وعـــذاب المنـــافقين والمنافقـات والمشركين والمشركات أليم)

الآيات (٦٩ ـ ٧٣)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ
ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

وكان عند الله وجيها : أي له وجاهةٌ وجاهٌ عند ربّه عزّ وجلّ(١) وفلانٌ وجيهٌ ذو جاه(٢) والوجيه في كلام العرب المُحَبّ المقبول(٣) .

تنادى الآية الكريمة الّذين آمنوا وتنهاهم أن يكونوا مع نبيّهم ﷺ كبنى إسرائيل الّذين آذوا موسى عليه السّلام فبرّأه الله تعالى ممّا قالوا فيه عليه الصّلاة والسّلام من الكذب بما أظهر من البرهان على كذبهم(٤) وكان عليه الصّلاة والسّلام ذا وجاهةٍ وجاهٍ عند الله تعالى. قال بعضهم : من وجاهته العظيمة أنّه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه، فأجاب الله سؤاله وقال(٥) : ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيّاً﴾(٦).

وممّا أوذي به موسى عليه السّلام ما رواه البخاريّ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ موسى عليه السّلام كان رجلاً حييّاً ستّيرا(٧) لا يُرَى من جلْده شيءٌ استحياءً منه(٨) فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل فقالوا : ما يتستّر هذا التّستّر

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٧٦ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «وجه» ٢/ ٦٦٦ .

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٦ .

(٤) انظر تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٦ .

(٥) سورة مريم ٥٣ .

(٦) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٧٦ .

(٧) ستّره كستَرَه . وستر الشّيء أخفاه . لسان العرب : «ستر» .

(٨) جاء في تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٧ : «عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ بنى إسرائيل كانوا يغتسلون وهم عراة» وانظر فتح البارى ٨/ ٤٣٧ .

إلاّ مِنْ عيب بجلده، إمّا بَرَصٌ وإمّا أُدْرَة[1]. وإمّا آفة. وإنّ الله عزّ وجلّ أراد أن يبرئه ممّا قالوا لموسى عليه السّلام. فخلا يوماً وَحْدَه، فخلع ثيابه على حجرٍ ثمّ اغتسل. فلمّا فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإنّ الحجر عدا بثوبه. فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر. فجعل يقول: ثَوْبي حَجَر، ثوبي حجر[2] حتّى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عُرْياناً أحسن ما خلق الله عزّ وجلّ وأبرأه ممّا يقولون. وقام[3] الحجر. فأخذ ثوبه فلبسه. وطَفِق بالحجر ضرباً بعصاه. فو الله إنّ بالحجر لنُدْبا[4] مِنْ أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمسا. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تكونوا كالّذين آذوا موسى فبرّأه الله ممّا قالوا وكان عند الله وجيها﴾.

وهذا سياقٌ حسن مطوّل[5] وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم[6].

وممّا أوذي به محمّدٌ ﷺ ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قَسَم رسول لله ﷺ ذات يومٍ قَسْماً فقال رجلٌ من الأنصار: إنّ هذه القسمة ما أريد بها وجه الله. قال: فقلت: يا عدوّ الله، أما لأخبرنّ رسول الله ﷺ بما قلت. قال: فذكر ذلك للنّبيّ ﷺ فاحمرّ وجهه ثمّ قال: رحمة الله على موسى. لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر.

أخرجاه في الصحيحين[7].

---

(١) الأدرة على وزن غرفة انتفاخ الخُصية وصاحبها آدر.

(٢) أي ثوبي يا حَجَر.

(٣) وقام الحجر، أي وقف وثبت.

(٤) النُّدْب جمع النَّدْبة والنَّدَبة بسكون الدّال وفتحها: أثر الجرح الباقي على الجلد.

(٥) بالقياس إلى الحديث في تفسير سورة الأحزاب فتح الباري ٨/ ٥٣٤ حديث رقم ٤٧٩٩.

(٦) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٧٣ وانظر فتح الباري ٦/ ٤٣٦ حديث رقم ٣٤٠٤.

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٧٥.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾

وقولوا قولاً سديد : قولاً قاصداً غير جائر، حقّاً غير باطل(١).

يصلح لكم أعمالكم : يوفّقكم لصالح الأعمال(٢).

يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النّواهى، وقولوا قولاً سديداً، مستقيماً غير مائل، حقّاً غير باطل. إنّكم إن فعلتم ذلك يوفّقكم الله تعالى لصالح الأعمال، ويغفر لكم ما قد ترتكبون من ذنوب وتأتون من آثام. ومن يطع الله تعالى ويطع الرّسول ﷺ طاعةً مطلقةً فقد فاز فوزاً عظيماً في الأولى والآخرة. إنّه في الأولى على هدىً من ربّه، وإنّه في الآخرة من المفلحين.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٨.

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٨.

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾

إنّا عرضنا الأمانة : قال ابن عبّاس : الأمانة الفرائض الّتى افترضها الله على العباد(١).

على السّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان : قال ابن عبّاس : الأمانة الفرائض، عرضها الله عزّ وجلّ على السّماوات والأرض والجبال، إن أدّوْها أثابهم، وإن ضيّعوها عذّبهم. فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله عزّ وجلّ ألاّ يقوموا به. ثمّ عرضها على آدم فقبلها بما فيها. قال النّحّاس : وهذا القول هو الّذى عليه أهل التّفسير(٢).

إنّه كان ظلوماً جهولا : ظلوماً لنفسه، جهولاً فيما احتمل فيما بينه وبين ربّه(٣).

تقرّر الآية الكريمة أنّ الحقّ جلّ وعلا عرض الأمانة بمعنى الفرائض على السّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها في غير معصية لله تعالى، وأشفقن منها، وخفن ألاّ يقمن بتبعاتها. ويلاحظ أن ثمّة تدرّجاً من الكبير إلى الصّغير. فالسّماوات أكبر من الأرض، والجبال جزءٌ من الأرض. يقول أبو حيان(٥) :

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣٨.

(٢) تفسير القرطبى ٥٣٣٧.

(٣) تفسير القرطبى ٥٣٣٧.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤١.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٥٣.

«والظّاهر عرض الأمانة على هذه المخلوقات العظام، وهي الأوامر والنّواهي، فتثاب إن أحسنت وتعاقب إن أساءت، فأبت وأشفقت. ويكون ذلك بإدراك خَلَقَهُ الله فيها. وهذا غير مستحيل، إذ قد سبّح الحصى في كفّه عليه الصّلاة والسّلام، وحَنّ الجذع إليه، وكلّمته الذّراع. فيكون هذا العرض والإباء حقيقة... وقيل: هو مجاز. فقيل من مجاز الحذف، أي على من فيها من الملائكة، وقيل مِنْ باب التّمثيل».

وإنّ هذه الفرائض الّتي أبت السّماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها لضخامة المسئولية، حينما عرضت على أبينا آدم عليه السّلام قَبِلَها وحَمَلها وهو الأقلّ ضخامةً وقوّةً من أصغر الجبال فكيف بالسّماوات السّبع والأرضين السّبع. وحينما قَبِل آدم عليه السّلام الأمانة، بلسان المقال أو بلسان الحال، حملها أبناؤه من بعده. إنّ آدم عليه السّلام بقبوله حَمْلَ الأمانة كان ظلوماً لنفسه، هكذا في صيغة المبالغة، فعول، جهولاً بحقيقة قدرته، هكذا في صيغة المبالغة، فعول(١).

لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

ليعذب الله : اللّام للتّعليل(٢).

عرض الله تعالى الأمانة الّتي قَبِلَها أبونا آدم عليه السّلام الظّلوم الجهول ليعذّب الله تعالى المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، وهما الفريقان اللّذان ضيّعا الأمانة. والمنافقون يتظاهرون بالإيمان وبأداء الأمانة وهم يبطنون الكفر.

---

(١) درسنا الآية الكريمة في كتاب: تأملات في سورة الأحزاب ٥٣١-٥٤٤.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٢٨٨.

والمشركون يتّفق ظاهرهم وباطنهم، فهم مشركون ظاهراً وباطناً، رافضون للأمانة ظاهراً وباطناً. إنّ هذين الفريقين يستحقّان العذاب الأليم.

وعرض الله تعالى الأمانة الّتى قَبِلَها آدم عليه السّلام ليتوب الله تعالى على المؤمنين والمؤمنات بإرشادهم إلى التّوبة وقبول توبتهم. وهذا الفريق هو الّذى أدّى الأمانة بتوفيق الله تعالى في حدود وُسْعِه وطاقته.

وكان الله تعالى غفوراً لمن استغفَر الله تعالى من ذنبه، رحيماً لمن تاب وأناب وآمن وعمل صالحاً.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

صبيحة يوم الجمعة ٦/٧/١٤٢٠هـ
مكة المكرمة

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
أ.د. حسن محمّد باجودة

•• تعقيب

من المعروف أنّ سورة الأحزاب مدنيّة، وأنّها تكلّمت في بعض الأمور الّتى حدثت في نهاية سنة خمسٍ من الهجرة كغزوتي الأحزاب وبنى قريظة، وأنّها اشتملت على بعض الأحكام. والمعروف أنّ من صفات المدنيّ من القرآن الاشتمال على الأحكام، لأنّ الدّولة الإسلاميّة القادرة على تطبيق الأحكام نشأت في المدينة المنوّرة بهجرة النّبيّ ﷺ. وحينما يكون المصطفى ﷺ قد عاش بعد الهجرة عشر سنوات فإنّ اشتمال سورة الأحزاب على بعض الأمور الّتى وقعت في نهاية سنة خمسٍ من الهجرة معناه أنّ السّورة الكريمة المائلة إلى الطّول النّسبيّ والمشتملة على العديد من الأحكام، لها دورها الكبير في بناء المجتمع المسلم في المدينة المنوّرة، وفي بناء الدّولة الإسلاميّة الّتى انطلقت من المدينة المنوّرة العاصمة.

ولو أنّا أردنا أن نتبيّن المحور الّذى تدور حوله سورة الأحزاب المدنيّة الكريمة من ناحية القضايا والأحكام فإنّا نستطيع أن نقول إنّ هذا المحور هو الأمانة الّتى عرضها الله تعالى على السّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان الظّلوم لنفسه الجهول لحقيقة قدرته. قال عزّ من قائل(١): ﴿إنّا عرضنا الأمانة على السّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً. ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾ وقد تفاوتت حظوظ جنس الإنسان في أداء هذه الأمانة. فثّمة الّذين سُعدوا بفضل الله تعالى ويأتى على رأسهم الرّسل والنّبيّون، يليهم الصدّيقون والشّهداء والصّالحون، وثمّة الّذين شَقُوا بعلم الله تعالى ويأتى في ذيل قائمتهم المنافقون الّذين هم في الدّرك الأسفل من النّار لأنّهم في الحقيقة مشركون يرتكبون الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الشّرك.

ونحن في محاولتنا تبيين محور الأمانة الّذى تدور حوله السّورة المدنيّة الكريمة سنحاول، مستعينين بالله تعالى دائماً وأبداً، أن نصل إلى ذلك الهدف عن طريق

---

(١) سورة الأحزاب ٧٢و٧٣.

تبيين موقف الفئات الّتي تحدّثت عنها السّورة الكريمة من زاوية موقفها من الأمانة، أداءً أو خيانة. وسنحاول جهد الطّاقة أن نبدأ من رأس الهرم وأن نتّجه إلى القاعدة درجةً درجة. والله تعالى وليّ التّوفيق.

ويصحّ أن يكون التّناول على هذا النّحو :

١ - محمّدٌ ﷺ زعيم أولى العزم من الرّسل وخاتم النّبيّين :

يأتي المرسلون والنّبيّون على رأس قائمة المنعم عليهم الّذين خصّهم الله تعالى بنعمتي الرّسالة والنّبوّة، وكلٌّ منهما محض فضلٍ من الله تعالى. وهؤلاء المرسلون والنّبيّون هم بفضل الله تعالى أعظم من بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة. ومحمّد بن عبد الله ﷺ رسول الله تعالى، بل أحد أولى العزم من الرّسل، بل أوّل أولى العزْم من الرّسل. والدّليل على ذلك أنّ سورة الأحزاب بعد النّصّ على أخذ الميثاق من النّبيّين على الإجمال يأتي النّصّ على التفصيل بشأن أولى العزم الخمسة من الرّسل، ويكون الابتداء بخاتمهم محمّد بن عبد الله ﷺ دليلاً على أنّه عليه الصّلاة والسّلام زعيم أولى العزم من الرّسل. قال تعالى(١) : ﴿وإذ أخذنا من النّبيّين ميثاقهم ومنك ومن نوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا. ليسأل الصّادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذاباً أليما﴾.

ومحمّد بن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين. وحينما تكون النّبوّة الطّريق الوحيد المؤدي إلى مرتبة الرّسالة العليا، يكون في ختم النّبوّة إيصادٌ للطّريق الوحيد المؤدى للرّسالة، وفي ذلك الإيصاد ختمٌ للرّسالة بطريق الأحرى والأولى. وإنّ في النّصّ على ختم النّبوّة مظهراً من مظاهر إعجاز القرآن الكريم، لأنّ في ذلك دليلاً على ختم الرّسالة. قال تعالى(٢) : ﴿ماكان محمّدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النّبيّين. وكان الله بكلّ شيءٍ عليما﴾ والمعنى : ما كان محمّدٌ أبا أحدٍ من رجالكم أيّها الناس ولكن رسول الله تعالى وخاتم النّبيّين وخاتم المرسلين.

---

(١) سورة الأحزاب ٧و٨.

(٢) سورة الأحزاب ٤٠.

ومحمّد بن عبد الله ﷺ هو الأسوة الحسنة للمؤمنين. والمعروف أنّ محمّداً ﷺ هو وَحْدَه الّذى يمكن أن يُتَّخَذَ أسوةً حسنة، لأنّ سيرته عليه الصّلاة والسّلام، هي السّيرة الوحيدة الكاملة العلميّة العمليّة. قال تعالى(١) : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾.

ومحمّد بن عبد الله ﷺ هو النّبيّ الوحيد الّذى يخاطبه الحقّ جلّ وعلا بكونه نبيّاً أو بكونه رسولاً. وإذا كان خطاب المصطفى ﷺ بالقول : ﴿يا أيّها الرّسول﴾ قد جاء في الآيتين الكريمتين الحادية والأربعين والسّابعة والسّتّين من سورة المائدة، فإنّ الخطاب بالقول : ﴿يا أيّها النّبيّ﴾ قد جاء في ثلاثة عشر موضعاً في القرآن الكريم. منها خمسة مواضع في سورة الأحزاب وَحْدَها. أمّا بقيّة المواضع ففي سورة الأنفال ثلاثة، وذلك في الآيات الكريمات الرّابعة والسّتّين، والخامسة والسّتّين، والسّبعين. وفي سورة التّوبة موضعٌ واحدٌ في الآية الكريمة الثّالثة والسّبعين. وفي سورة الممتَحَنة موضعٌ واحد في الآية الكريمة الثّانية عشرة. وفي سورة الطّلاق موضعٌ واحدٌ في الآيةالكريمة الأولى. وفي سورة التّحريم موضعان، في الآية الكريمة الأولى، والآية الكريمة التّاسعة. ويلاحظ أنّ الآية الكريمة التّاسعة من سورة التّحريم، هي الآية الكريمة الثّالثة والسّبعون من سورة التّوبة. وبذلك يكون النّداء : ﴿ يا أيّها النّبيّ﴾ قد جاء في سورة الأحزاب بأكثر من أيّ سورة أخرى من سور القرآن الكريم. وهذه هي المواضع الخمسة في سورة الأحزاب. قال تعالى(٢) : ﴿يا أيّها النّبيّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين. إنّ الله كان عليماً حكيماً﴾. وقال تعالى(٣) : ﴿يا أيّها النّبيّ قل لأزواجك إن كنتنّ تردن الحياة الدّنيا وزينتها فتعالين أمتّعكنّ وأسرّحكنّ سراحاً جميلا﴾ وقال تعالى(٤) : ﴿يا أيّها النّبيّ

---

(١) سورة الأحزاب ٢١.

(٢) سورة الأحزاب ١.

(٣) سورة الأحزاب ٢٨

(٤) سورة الأحزاب ٤٥

إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً﴾ وقال تعالى [1]: ﴿يا أيّها النّبيّ إنّا أحللنا لك أزواجك اللّاتي آتيت أجورهنّ وما ملكت يمينك ممّا أفاء الله عليك وبنات عمّك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللّاتي هاجرن معك وامرأةً مونةً إن وهبت نفسها للنّبيّ إن أراد النّبيّ أن يستنكحها خالصةً لك من دون المؤمنين. قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكونَ عليك حَرَج وكان الله غفورا رحيما﴾ وقال تعالى[2] : ﴿يا أيّها النّبيّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ. ذلك أدني أن يُعْرَفْنَ فلا يُؤْذَيْن. وكان الله غفوراً رحيما﴾.

ومحمّد بن عبد الله ﷺ يصلّي الله تعالى عليه في الملأ الأعلى والملائكة الأطهار، فعلينا نحن المسلمين أن نصلّي ونسلّم عليه كما علّمنا عليه الصّلاة والسّلام. والصّلاة من الله تعالى الثّناء والرّحمة. وصلاة الملائكة الدّعاء والصّلاة من العباد الثّناء، ليجتمع له ﷺ الثّناء في العالمين العلويّ والسّفليّ معاً. قال تعالى[3] : ﴿إنّ الله وملائكته يصلّون على النّبيّ. يا أيّها الّذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما﴾.

ومحمّد بن عبد الله ﷺ أَوْلى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمّهاتهم، وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة إذا قضى الله تعالى ورسوله ﷺ أمراً أن يكون لهم حرّيّة الاختيار بالقبول أو الرّفض. إنّ عليهم الطّاعة المطلقة. قال تعالى[4] : ﴿النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم. وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً. كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾ وقال تعالى[5] : ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله

---

(١) سورة الأحزاب ٥٠.

(٢) سورة الأحزاب ٥٩.

(٣) سورة الأحزاب ٥٦

(٤) سورة الأحزاب ٦.

(٥) سورة الأحزاب ٣٦

ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم. ومن يَعْصِ الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾ والّذين يؤذون الله تعالى ورسوله ﷺ ملعونون في الدّنيا والآخرة. قال تعالى(١) : ﴿إنّ الّذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدّنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهيناً﴾ والمؤمنون منهيّون أن يكونوا كبنى إسرائيل الّذين آذوا موسى عليه الصّلاة والسّلام. قال تعالى(٢) : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تكونوا كالّذين آذَوْا موسى فبرّأه الله ممّا قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾.

ومحمّد بن عبد الله ﷺ مأمورٌ ومنهيّ. فهو ـ مثلاً ـ مأمورٌ بتقوى الله تعالى، واتّباع وحيه، والتّوكّل عليه عزّ وجلّ وحده دون سواه، ومنهيٌّ عن طاعة الكافرين والمنافقين. قال تعالى(٣) : ﴿يا أيّها النّبيّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين. إنّ الله كان عليماً حكيماً. واتّبع ما يوحى إليك من ربّك. إنّ الله كان بما تعملون خبيرا. وتوكّل على الله. وكفى بالله وكيلا﴾ وقال تعالى(٤) : ﴿يا أيّها النبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيرا. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا. وبشّر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيرا. ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكّل على الله. وكفى بالله وكيلا﴾.

وممّا له عَلاقةٌ بأداء محمّدٍ ﷺ الأمانة على خير وجه أنّه عليه الصّلاة والسّلام هو الّذى يؤمر ابتداءً بأن يدعو زيد بن حارثة لأبيه زيد، وبذلك يُقْضَى نظرياً على عادة العرب في تنزيل المتبنّى منزلة الابن من الصُّلب، وبعد أن كان يقال زيد بن محمّد أصبح يقال له زيد بن حارثة. وإلى هذه المرحلة النّظريّة للقضاء على ظاهرة التّبنّى وما ترتّب عليها من أحكام أشار قوله تعالى(٥) : ﴿ما جعل الله لرجلٍ من

---

(١) سورة الأحزاب ٥٧.

(٢) سورة الأحزاب ٦٩.

(٣) سورة الأحزاب ١-٣.

(٤) سورة الأحزاب ٤٥-٤٨.

(٥) سورة الأحزاب ٤ و ٥.

قلبين في جوفه. وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهنّ أمّهاتكم. وما جعل أدعياءكم أبناءكم. ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحقّ وهو يهدى السّبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدّين ومواليكم. وليس عليكم جناحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم. وكان الله غفوراً رحيماً﴾ ثمّ كان القضاء العمليّ على ظاهرة التّبنّى حينما أمر الحقّ جلّ وعلا محمّداً ﷺ أن يذهب ويخطب زينب بنت جحش البكر ابنة عمّته لزيد بن حارثة مولاه فيمتثل، وبعد طلاقها من زيد وانقضاء عدّتها يأمره الحقّ جلّ وعلا بأنه يتزوّج زينب بنت جحش الثّيّب فامتثل. ولأنّه عليه الصّلاة والسّلام أخفى في نفسه ما أوحى الله تعالى إليه من زواجه بزينب بعد طلاقها من زيد وانقضاء عدّتها كي يُقْضَى عمليّاً على عادة العرب في التبنّى، ولأنّه عليه الصّلاة خشى أذى المشركين والمنافقين أن يقولوا أمر زيداً بطلاق زينب كي يتزوّجها، نزلت في تلك المناسبة أشدّ ايات عتاب المصطفى ﷺ. قال تعالى[1]: ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيرة من أمرهم. ومَنْ يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبينا. وإذ تقول للّذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أَمْسك عليك زوجك واتّق الله وتُخْفى في نفسك ما الله مبديه وتَخشى النّاس والله أحقّ أن تخشاه. فلمّا قضى زيدٌ منها وطراً زوّجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطرا. وكان أمر الله مفعولا. ما كان على النّبيّ مِنْ حرجٍ فيما فرض الله. سنّة الله في الّذين خَلَوْا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدورا. الّذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلاّ الله. وكفى بالله حسيبا. ما كان محمّدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النّبيّين. وكان الله بكلّ شيءٍ عليما﴾.

ومّما له علاقةٌ كذلك بأداء محمّد ﷺ الأمانة على خير وجه ما جاء في السّورة الكريمة من أحكام. والمعروف أنّ القرآن الكريم توحيدٌ وقَصصٌ وأحكام. ويؤكد القصص والأحكام الهدف الأوّل وهو التّوحيد. وفي سورة الأحزاب العديد

(١) سورة الأحزاب ٣٦-٤٠.

من الأحكام. ومن هذه الأحكام ما هو عامٌّ يندرج فيه المصطفى ﷺ. ومن هذه الأحكام ما هو خاصٌّ به ﷺ كزواجه عليه الصّلاة والسّلام فوق أربع، وزواجه دون مهر مَنْ وهبت نفسها له ﷺ، وسقوط القَسْم بين الزّوجات في حقّه عليه الصّلاة والسّلام ولكنّه كان يقسم بينهنّ تفضّلا. وممّا جاء في الأحكام في سورة الأحزاب الكريمة قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثمّ طلّقتموهنّ من قبل أن تمسّوهنّ فما لكم عليهنّ من عدّة تعتدّونها فمتّعوهنّ وسرّحوهنّ سراحاً جميلا. يا أيّها النّبيّ إنّا أحللنا لكَ أزواجك اللّاتي آتيت أجورهنّ وما ملكت يمينك ممّا أفاء الله عليك وبنات عمّك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللّاتي هاجرن معك وامرأةً مؤمنةً إن وهبت نفسها للنّبيّ إن أراد النّبيّ أن يستنكحها خالصةً لك من دون المؤمنين. قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج. وكان الله غفوراً رحيما. تُرْجي من تشاء منهنّ وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممّن عزلت فلا جناح عليك. ذلك أدنى أن تقرّ أعينهنّ ولا يحزنّ ويرضَيْن بما آتيتهنّ كلُّهنّ. والله يعلم ما في قلوبكم. وكان الله عليماً حليما. لا يحلّ لك النّساء مِنْ بَعْد ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج ولو أعجبك حُسْنُهنّ إلاّ ما ملكت يمينك. وكان الله على كلّ شيءٍ رقيبا. يا أيّها الّذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النّبيّ إلاّ أن يؤذن لكم إلى طعامٍ غَيْرَ ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث. إنّ ذلكم كان يؤذي النّبيّ فيستحيي منكم. والله لا يستحيي من الحقّ. وإذا سألتموهنّ متاعاً فاسألوهنّ من وراء حجاب. ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهنّ. وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا. إنّ ذلكم كان عند الله عظيما. إن تبدوا شيئاً أو تُخْفوه فإنّ الله كان بكلّ شيءٍ عليما. لا جناح عليهنّ في آبائهن ولا أبنائهنّ ولا إخوانهنّ ولا أبناء إخوانهنّ ولا أبناء أخواتهنّ ولا نسائهنّ ولا ما ملكت أيمانهنّ. واتّقين الله. إنّ الله كان على كلّ شيءٍ شهيدا﴾ وقال تعالى[2] : ﴿يا أيّها

---

(١) سورة الأحزاب ٤٩-٥٥.

(٢) سورة الأحزاب ٥٩.

النّبيّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ. ذلك أدنى أو يُعْرَفن فلا يؤذين. وكان الله غفوراً رحيما﴾.

ومن الأحكام العامّة أحكام الميراث كما بيّنتها أخيراً آيات الميراث الثّلاث في سورة النّساء. لقد نسخت الآيات الكريمات كلّ الأحكام المؤقّتة من توارث بالإيمان والهجرة والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار والحِلْف. جاء في هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا(١) : ﴿النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم. وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا. كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾.

٢ - أمّهات المؤمنين الأسوة الحسنة للمؤمنات :

بعد مرتبة النّبوّة ومرتبة الرّسالة يأتي أهل بيت النّبوّة، الّذين أراد الله تعالى أن يذهب عنهم الرّجس ويطهرهم تطهيرا. وبفضلٍ من الله تعالى ونعمة نال الكثيرُ من الخير زوجات المصطفى ﷺ ببركة اقترانهنّ به عليه الصّلاة والسّلام. إنهنّ بمنزلة الأمّهات للمؤمنين في بعض الأحكام. وكما لا يصحّ أن يتزوّج الواحد والدته لا يصحّ زواج المؤمن من إحدى زوجات المصطفى ﷺ. جاء في الآية الكريمة السّادسة من سورة الأحزاب قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم﴾ وجاء في الآية الكريمة الثّالثة والخمسين من سورة الأحزاب قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا. إنّ ذلكم كان عند الله عظيما﴾ ولمّا كان أهل البيت الأسوة الحسنة للمؤمنات فقد كنّ الهدف الأوّل للأحكام، وفي ذلك درسٌ للدّعاة في كلّ زمانٍ ومكان بأن يبدأوا بمن يعولون. جاء في الآية الكريمة التّاسعة والخمسين من سورة الأحزاب قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿يا أيّها النّبيّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ. ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين. وكان الله غفوراً رحيما﴾ وحينما قالت أمّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها للنّبيّ ﷺ : مالنا

---

١) سورة الأحزاب ٦

لا نُذكر في القرآن الكريم كما يُذْكر الرّجال نزل قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدّقين والمتصدّقات والصّائمين والصّائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذّاكرين الله كثيراً والذّاكرات أعدّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾.

وكما كان لأمّهات المؤمنين من الحقوق كان عليهنّ المزيد من الواجبات رضوان الله تعالى عليهنّ أجمعين، خاصّةً وأنّهن قد اخترن الله تعالى ورسوله ﷺ والدّار الآخرة على الحياة الدّنيا وزينتها. جاء في هذه المعانى قول الحقّ جلّ وعلا[2] : ﴿يا أيّها النّبيّ قل لأزواجك إن كنتنّ تردن الحياة الدّنيا وزينتها فتعالَيْنَ أمتّعكنّ وأسرّحكنّ سراحاً جميلا. وإن كنتنّ تردن الله ورسوله والدّار الآخرة فإنّ الله أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيما. يا نساء النّبيّ من يأت منكنّ بفاحشة مبيّنة يضاعَفْ لها العذاب ضعفين. وكان ذلك على الله يسيرا. ومن يقنت منكنّ لله ورسوله وتَعْمَل صالحاً نؤتها أجرها مرّتين وأعتدنا لها رزقاً كريما. يا نساء النّبيّ لستنّ كأحد من النّساء. إن اتّقيتنّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الّذى في قلبه مرضٌ وقلن قولاً معروفا. وقَرْن في بيوتكنّ ولا تبرّجن تبرّج الجاهليّة الأولى وأقمن الصّلاة وآتين الزّكاة وأطعن الله ورسوله. إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا. واذكرن ما يُتْلَى في بيوتكنّ من آيات الله والحكمة. إنّ الله كان لطيفاً خبيرا﴾.

٣ - المؤمنون

الحياة سلمٌ وحرب. ودين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به رسوله ﷺ دين السّلام ودين الجهاد في سبيل الله تعالى. وإنّ الجهاد في سبيل الله تعالى وبذل النّفس والنّفيس رخيصين في سبيله عزّ وجلّ ذروة سنام هذا الدّين. وإنّ عزّ المسلمين دائماً وأبداً مقرونٌ برفع راية الجهاد في سبيل الله تعالى. ولن يعود لهذه

(١) سورة الأحزاب ٣٥.

(٢) سورة الأحزاب ٢٨-٣٤.

الأمّة غابر عزّها وتالد مجدها حتّى تتأسّى بالمصطفى ﷺ إمام المتقين وبطل الأبطال. وقد جاء في هذه السّورة الكريمة، في أثناء حديثها عن غزوة الأحزاب أو الخندق، الّتى تكاد تكون أشقّ الغزوات على النّبيّ ﷺ وعلى المؤمنين من الوجهة النّفسية، في الآية الكريمة الحادية والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر لله كثيرا﴾ وحينما تأتى هذه الآية الكريمة في أثناء الحديث عن هذه الغزوة الشّاقّة فذلك دليلٌ على أنّ على المسلمين أن يتأسّوا به عليه الصّلاة والسّلام في كلّ مناحى الحياة، وبخاصّة في مجال الجهاد في سبيل الله تعالى بالنّفس والنّفيس.

وكما تحدّثت السّورة الكريمة عن المؤمنين في ميدان الجهاد في سبيل الله تعالى تحدّثت عنهم وقت السِّلم. إنّ حياة المؤمن جهادٌ وكفاحٌ في وقت كلٍّ من الحرب والسّلم.

وفي مجال الحرب ذكّرت السّورة الكريمة المؤمنين بنعمة الله تعالى حينما نصرهم نصراً عزيزاً على كلٍّ من كافرى العرب في هيئة قريش وغطفان وبقيّة الأحزاب، وكافرى يهود فى هيئة غزوة بنى قريظة الّذين ظاهروا الأحزاب ونقضوا العهد الّذى كان بينهم وبين النّبيّ ﷺ. قال تعالى[1] : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها. وكان الله بما تعملون بصيرا. إذ جاءوكم مِنْ فوقكم ومن أَسْفَلَ منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظّنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزُلْزِلوا زِلزالاً شديدا﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما. مِنَ المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا. ليجزى الله الصّادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم. إنّ

---

(١) سورة الأحزاب ٩-١١.

(٢) سورة الأحزاب ٢٢-٢٧.

الله كان غفوراً رحيما. وردّ الله الّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال. وكان الله قوياً عزيزا. وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرّعب فريقاً تَقتُلون وتأسِرون فريقا. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها. وكان الله على كلّ شيءٍ قديرا﴾.

فإذا تجاوزنا الحرب إلى السّلم تبيّنّا حظّ المؤمنين الموفور في السّورة الكريمة. وإنّ من أوفر أفراد المؤمنين حظّاً زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه الّذى جاء اسمه وَحْدَه في القرآن الكريم كلّه تعويضاً من الحقّ جلّ وعلا لزيد الّذى كان يُدْعَى زيد ابن محمّد، وبالقضاء على عادة العرب في التّبنّى أصبح ينسب لأبيه فيقال زيد بن حارثة. إنّ على كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ أن يرضى بما قضى الله تعالى وقضى رسوله ﷺ. إنّ على زينب بنت جحش وأخيها عبد الله رضي الله تعالى عنهما أن يرضيا بما قضى الله تعالى به من زواج زينب بزيد بن حارثة مولى النّبيّ ﷺ. وكما أكرم الله تعالى زيداً بمجيء اسمه وحده في القرآن الكريم من بين أفراد الأمّة المحمّديّة، أكرم الله تعالى زينب الّتى أصبحت بعد طلاقها من زيد وانقضاء عدّتها إحدى زوجات المصطفى ﷺ وأمّاً للمؤمنين. قال تعالى[1] : ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم. ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبينا. وإذ تقول للّذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتّق الله وتُخْفى في نفسك ما الله مبديه وتَخْشَى النّاس والله أحقّ أن تخشاه. فلمّا قضى زيدٌ منها وطراً زوّجناكها لكيلا يكونَ على المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قَضَوْا منهنّ وطراً. وكان أمر الله مفعولا. ما كان على النّبيّ مِنْ حَرَج فيما فرض الله له. سنّة الله في الّذين خَلَوْا من قبل. وكان أمر الله قدراً مقدورا. الّذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشَوْن أحداً إلاّ الله. وكفى بالله حسيبا﴾.

---

(١) سورة الأحزاب ٣٦-٣٩

والمؤمنون إذا ذكروا الله تعالى ذكراً كثيراً وعبدوه حقّ العبادة ذكرهم في الملأ الأعلى وذكرهم الملائكة. قال تعالى(١) : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً. وسبّحوه بكرةً وأصيلا. هو الّذى يصلّى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظّلمات إلى النّور. وكان بالمؤمنين رحيما. تحيّتهم يوم يلقونه سلام. وأعدّ لهم أجراً كريما﴾ والنّبيّ ﷺ مأمورٌ بأن يبشّر المؤمنين بالفضل الكبير من الله تعالى. قال تعالى(٢) : ﴿وبشّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيرا﴾ والمؤمنون إذا طلّقوا زوجاتهم بعد العقد وقبل الدّخول ليس لهم عدّةٌ على المطلّقات. قال تعالى(٣) : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثمّ طلّقتموهنّ من قبل أن تمسّوهنّ فما لكم عليهنّ من عدّة تعتدّونها فمتّعوهنّ وسرّحوهنّ سرّاحاً جميلا﴾.

وتبيّن السّورة الكريمة للمؤمنين آداب الولائم وحرمات البيوت. قال تعالى(٤) : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النّبيّ إلاّ أن يؤذن لكم إلى طعامٍ غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث. إنّ ذلكم كان يؤذى النّبيّ فيستحيى منكم. والله لا يستحيى من الحقّ. وإذا سألتموهنّ متاعاً فاسألوهنّ من وراء حجاب. ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهنّ. وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا. إنّ ذلكم كان عند الله عظيما. إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإنّ الله كان بكلّ شيءٍ عليما. لا جناح عليهنّ في آبائهنّ ولا أبنائهنّ ولا إخوانهنّ ولا أبناء إخوانهنّ ولا أبناء أخواتهنّ ولا نسائهنّ ولا ما ملكت أيمانهنّ واتّقين الله. إنّ الله كان على كلّ شيءٍ شهيدا﴾.

---

(١) سورة الأحزاب ٤١-٤٤.

(٢) سورة الأحزاب ٤٧.

(٣) سورة الأحزاب ٤٩.

(٤) سورة الأحزاب ٥٣-٥٥.

وإنّ الّذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات آثمون. قال تعالى(١) : ﴿والّذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ وإنّ نساء المؤمنين مأمورات بإرخاء ثيابهنّ على كامل أجسادهنّ. قال تعالى(٢) : ﴿ يا أيّها النّبيّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ. ذلك أدنى أن يُعْرَفن فلا يؤذين. وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

والمؤمنون منهيّون عن إيذاء المصطفى ﷺ ومأمورون بتقوى الله تعالى. قال تعالى(٣) : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تكونوا كالّذين آذوا موسى فبرّأه الله ممّا قالوا. وكان عند الله وجيها. يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وقولوا قولاً سديدا. يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم. ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾.

وحينما يؤدّى المؤمنون الأمانة ويضطلعون بالمسئولية المنوطة بهم يتوب الله تعالى عليهم بينما يكون العذاب أليماً في حقّ الخائنين. قال تعالى(٤) : ﴿ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات. وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

٤ - كافرو العرب :

تحدّثت السّورة الكريمة عن فريقين من الكافرين، عن كافرى العرب، وعن غدر بنى قريظة من يهود وانتقام الله تعالى منهم.

وبشأن كافرى العرب كان الحديث عنهم من زاوية حربهم للرّسول ﷺ والمؤمنين في غزوة الأحزاب أو الخندق، ومن زاوية كفرهم وإشراكهم مع الله تعالى سواه.

لقد كان حديث السّورة الكريمة عن تحزّب الأحزاب من قريش وأحابيشها

---

(١) سورة الأحزاب ٥٨.

(٢) سورة الأحزاب ٥٩.

(٣) سورة الأحزاب ٦٩

(٤) سورة الأحزاب ٧٣

وغطفان وحلفائها ضدّ النّبيّ ﷺ والمؤمنين. قال تعالى[1] : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها. وكان الله بما تعملون بصيرا. إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظّنونا. هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا﴾ وقد هزم الله تعالى الأحزاب وَحْدَه. قال تعالى[2] : ﴿وردّ الله الّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال. وكان الله قوياً عزيزا﴾ وبعد أن ردّ الله تعالى الأحزاب بغيظهم لم ينالوا خيراً قال الصّادق المصدوق ﷺ الّذى لا ينطق عن الهوى : الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم[3] وقد كان.

وقد تحدّثت السّورة الكريمة عن هؤلاء الكافرين وراء ذلك في العديد من المواضع. إنّ النّبيّ ﷺ منهيٌّ عن طاعة الكافرين والمنافقين معاً. قال تعالى[4] : ﴿يا أيّها النّبيّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين. إنّ الله كان عليماً حكيما﴾ وقال تعالى[5] : ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله. وكفى بالله وكيلا﴾ وهؤلاء يؤذون الله تعالى بشركهم ويستهزئون بيوم القيامة، فهم ملعونون في الدّنيا والآخرة، خالدون في النّار. قال تعالى[6] : ﴿إنّ الّذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدّنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهينا﴾ وقال تعالى[7] : ﴿يسألك النّاس عن السّاعة. قل إنّما علمها عند الله. وما يدريك لعلّ

---

(١) سورة الأحزاب ٩-١١.

(٢) سورة الأحزاب ٢٥.

(٣) فتح الباري ٧/ ٤٠٥ حديث رقم ٤١١٠

(٤) سورة الأحزاب ١.

(٥) سورة الأحزاب ٤٨.

(٦) سورة الأحزاب ٥٧

(٧) سورة الأحزاب ٦٣-٦٨.

السّاعة تكون قريبا. إنّ الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيرا. خالدين فيها أبداً لا يجدون وليّاً ولا نصيرا. يوم تُقَلَّبُ وجوههم في النّار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرّسولا. وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السّبيلا. ربّنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيرا﴾.

ومن مظاهر إيذاء الكافرين النّبيّ ﷺ زعم كفّار قريش أنّ لواحد من المشركين قلبين اثنين يعقل بكلّ واحدٍ منهما أحسّن من عقل محمّد ﷺ. وقد أكذبهم الله تعالى بالقول(١) : ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه﴾ وقد أعدّ الله تعالى للكافرين عذاباً أليماً. قال تعالى(٢) : ﴿ليسأل الصّادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذاباً أليما﴾ وقال تعالى(٣) : ﴿ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات. وكان الله غفوراً رحيما﴾.

٥ - كافرو يهود من بنى قريظة :

تحالف مع الأحزاب ضدّ النّبيّ ﷺ والمؤمنين عدوّان لدودان، أحدهما داخل حدود المدينة المنوّرة أعنى المنافقين، وآخرهما خارج حدود المدينة المنوّرة وعلى مشارفها أعنى يهود بنى قريظة الّذين نقضوا العهد الّذى كان بينهم وبين النّبيّ ﷺ وانضمّوا إلى المشركين ورموا جميعاً المسلمين عن قوسٍ واحدة. إنّ المسلمين قد زاغت أبصارهم بسبب الأحزاب وبلغت قلوبهم الحناجر، وابتُلوا وزُلْزِلوا زلزالاً شديداً بنصّ القرآن الكريم. لقد عمّق من كلّ تلك الجروح والآلام غدر بنى قريظة وتخلّى المنافقين عن المؤمنين وحرصهم على كسب ودّ المشركين.

لقد جاء عن غدر بنى قريظة وانتقام الحقّ عزّ وجلّ منهم قوله عزّ من قائل(٤) : ﴿وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في

---

(١) سورة الأحزاب ٤.

(٢) سورة الأحزاب ٨.

(٣) سورة الأحزاب ٧٣

(٤) سورة الأحزاب ٢٦ و ٢٧

قلوبهم الرّعب فريقاً تقتلُون وتأسِرون فريقا. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها. وكان الله على كلّ شيءٍ قديرا﴾.

٦ - المنافقون

المنافقون هم كافرون على الحقيقة، ولكنّهم أرغموا على إخفاء الكفر وإعلان الإيمان خوفاً على حياتهم وحرصاً على منافعهم. وبما أنّ قوّة المسلمين بعد الهجرة في نماءٍ دائم فقد كان المنافقون تبعاً لذلك في نماء دائم وكانوا متغلغلين في أحشاء مجتمع المدينة المنوّرة. وحينما رمت العرب في غزوة الأحزاب المسلمين عن قوسٍ واحدة ظهر المنافقون على حقيقتهم، لأنهّم ظنّوا أنّ المسلمين سوف تُسْتَأْصل شأفتهم خيّب الله تعالى ظنّهم. وقد كان حديث السّورة الكريمة عن المنافقين مستفيضاً. وكان الحديث عنهم وقتي الحرب والسّلم، العسر واليسر. ومع أنّ كافرى العرب ويهود هم الّذين أعلنوا الحرب وأظهروا العداوة فإنّ حديث السّورة الكريمة عن المنافقين أكثر من حديثها عن الفريقين الكافرين. والسّبب في ذلك أنّ خطر المنافقين دائماً هو الأشدّ، لأنّهم يندسّون في صفوف المؤمنين ويتغلغلون في أعماقهم، ويطّلعون على أسرارهم. وكان حديث السّورة المستفيض عن المنافقين في أثناء حديثها عن غزوة الأحزاب دليلاً أكيداً على أنّ المنافقين الّذين يدّعون الإيمان أشدّ خطراً من الكافرين الّذين يعلنون الكفر.

وقد تحدّثت السّورة الكريمة عن فئاتٍ من المنافقين، بناءً على شدّة نفاقهم وبغضهم للإسلام والمسلمين، وعلى ردّ الفعلٍ لديهم من مجيء الأحزاب. هذا إلى حديثها عن المنافقين في غير زمن الحرب. ونودّ أنّ نتحدّث عن هذه الفئات، وفق ترتيب السّورة الكريمة لها في أثناء غزوة الأحزاب أساسا. وتلحق بها الفئات الأخرى في غير زمن الحرب.

إنّ المنافقين فئات فمنهم المنافقون الّذين يتجرّأون على الله تعالى رأساً، ومن باب الأحرى يتجرّأون على من سواه. وإنّ منهم الّذين في قلوبهم مرضٌ من هذا القبيل ولكنّهم يقلّون عن السّابقين حدّةً وشدّة، وهؤلاء يتجرّأون على الرّسول ﷺ أساساً. وإلى هاتين الفئتين من المنافقين أشارت الآية الكريمة الثّانية عشرة من سورة

الأحزاب. قال تعالى : ﴿وإذ يقول المنافقون والّذين في قلوبهم مرضٌ ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً﴾.

وثمّة فئةٌ ثالثةٌ من المنافقين انسحبت من ميدان القتال ودعت الأنصار بكلّ قباحةٍ ووقاحةٍ أن تحذو حذوها وأن ترجع من ميدان الشّرف والبطولة إلى داخل المدينة مع النّساء والصّبيان والشّيوخ وذوى الأعذار. وثمّة فئةٌ رابعة لديها بقيّةٌ ضئيلةٌ من شهامة الكرام تستأذن النّبيّ ﷺ في العودة إلى المدينة لأن بيوتها غير حصينةٍ وكذبت في دعواها بنصّ القرآن الكريم. وهذه الفئة ذاقت وقتاً من الأوقات حلاوة الإيمان وعاهدت الله تعالى ألاّ تعاود الفرار من ميدان المعركة ولكنّها جبُنت وما وفت. وإلى هاتين الفئتين أشار قوله تعالى في سورة الأحزاب(١) : ﴿وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهل يثرب لا مُقام لكم فارجعوا. ويستأذن فريقٌ منهم النّبيّ يقولون إنّ بيوتنا عورةٌ وما هي بعورةٍ إن يريدون إلاّ فِرارا. ولو دُخِلَتْ عليهم من أقطارها ثمّ سُئِلوا الفتنة لآتوها وما تلبّثوا بها إلاّ يسيرا. ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار. وكان عهد الله مسئولا. قل لن ينفعكم الفِرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتّعون إلاّ قليلا. قل من ذا الّذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة. ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيرا﴾.

والفئة الخامسة من المنافقين هي الفئة الّتى لم تشارك في المعركة أساساً ولم تكتف بذلك بل تعمل على تثبيط همّة المؤمنين والفتّ في عضدهم وتدعو إخوانها الّذين في الميدان مع الرّسول ﷺ بأن يتركوا الميدان ويرجعوا إليهم في المدينة. ولو فُرِض أنّهم اضطرّوا لأن يشهدوا القتال مع المؤمنين فإنّهم لا يقاتلون إلاّ قليلاً وبمقدار ما يثبتون أنّهم مؤمنون من حقّهم أن يأمنوا على دمائهم وأعراضهم وأموالهم. إنّهم إن جاء الخوف رأيت أعينهم تدور من الخوف والجبن كالّذى يترقّب الموت من كلّ جهة. فإذا كان النّصر من نصيب المؤمنين كانوا أشدّ النّاس حرصاً على الغنيمة. إنّهم لم يؤمنوا إيماناً كاملاً وإنّهم يحسبون الأحزاب لم يذهبوا لشدّة هلعهم، ولو عاد الأحزاب لتمنّوا أنّهم في أعماق البوادى يسألون عن أخباركم أيّها

---

(١) الآيات ١٣-١٧.

المؤمنون. وإلى هذه المعاني أشارت الآيات الكريمات من سورة الأحزاب[1] قال تعالى : ﴿قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلاّ قليلا. أشحّةً عليكم. فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالّذى يُغْشَى عليه من الموت. فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنةٍ حداد أشحّةً على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم. وكان ذلك على الله يسيرا. يَحْسَبون الأحزاب لم يذهبوا. وإن يأت الأحزاب يودّوا لو أنّهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم. ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلاّ قليلا﴾.

إنّ أمر هؤلاء المنافقين إلى الله تعالى إن شاء عذّبهم وإن شاء تاب عليهم. قال تعالى[2] : ﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم. إنّ الله كان غفوراً رحيما﴾.

والنّبيّ ﷺ منهيٌّ عن طاعة المنافقين والكافرين جميعاً. قال تعالى[3] : ﴿يا أيّها النّبيّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين. إنّ الله كان عليماً حكيما﴾ وجاء خطاباً للنّبيّ ﷺ قوله تعالى[4] : ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكّل على الله. وكفى بالله وكيلا﴾ وهؤلاء المنافقون يؤذون الله تعالى ورسوله والمؤمنين فهم ملعونون في الدّنيا والآخرة. قال تعالى[5] : ﴿إنّ الّذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدّنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهينا. والّذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبينا﴾ وهؤلاء المنافقون هم الّذين كان الرّسول ﷺ يخشاهم والّذين عناهم الحقّ جلّ وعلا بالقول خطاباً

---

(١) الآيات ١٨ - ٢٠.

(٢) سورة الأحزاب ٢٤.

(٣) سورة الأحزاب ١.

(٤) سورة الأحزاب ٤٨

(٥) سورة الأحزاب ٥٧ و ٥٨.

للمصطفى ﷺ في سورة الأحزاب[1] : ﴿وتخشى النّاس والله أحقّ أن تخشاه﴾.

وهذه الفئة من مجتمع المدينة المنوّرة منافقة، وفي قلوب أفرادها ريبةٌ من شهوة الزّنا، ومرجفةٌ بالأكاذيب لتحطيم معنويّات المسلمين بالقول : انهزم المسلمون قُتِل بعضهم وأُسِر بعضهم وأُثخِن بالجراح بعضهم وهكذا. إنّ على هؤلاء أن يكفّوا عن نفاقهم وحبّهم أن تشيع الفاحشة في الّذين آمنوا وأراجيفهم وإلاّ كان عذابهم أليماً في الدّنيا والآخرة. قال تعالى[2] : ﴿يا أيّها النّبيّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ. ذلك أدنى أن يُعْرَفن فلا يؤذين. وكان الله غفوراً رحيما. لئن لم ينته المنافقون والّذين في قلوبهم مرضٌ والمرجفون في المدينة لنغرينّك بهم ثمّ لا يجاورونك فيها إلاّ قليلا. ملعونين أينما ثُقفُوا أُخِذوا وقتّلوا تقتيلا. سنّة الله في الّذين خلوا من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلا﴾.

وهؤلاء المنافقون الّذين يتقدّمون غيرهم في السّوء يتقدّمون في استحقاق العذاب. قال تعالى[3] : ﴿ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات. وكان الله غفوراً رحيما﴾.

ممّا سبق يتبيّن أنّ المحور الّذى تدور حوله سورة الأحزاب المدنيّة الكريمة هو الأمانة أو المسئولية. والله تعالى أعلم.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

مكّة المكرّمة
صبيحة يوم الاثنين ١٦/٧/١٤٢٠هـ

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
حسن محمّد باجودة

---

(١) الآية ٣٧.

(٢) سورة الأحزاب ٥٩-٦٢.

(٣) سورة الأحزاب ٧٣.

ثانياً

سورة سبأ

سُورَةُ سَبَإٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ
فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ
ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ
قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ۖ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ
ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ
وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ
ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ
يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۙ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ
ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ
يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ
سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ
وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾
يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ
وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ
ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ
إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ
أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ
كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ
﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ
جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ
﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً
وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾
فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا
فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ
إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ
اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن
قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ
﴿٢٣﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ
وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل
لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ
يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ
﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ
بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾
قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ
﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا
بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ
رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ
عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ
تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ
مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾
وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾
قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا
زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ
بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ
ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ
إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ
أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟
يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟
يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ
قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ
وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ
يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن
تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم
مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾
قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ
فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ
سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن
مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن
مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ
بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ
كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

بين يدي التفسير

(١)

« لله تعالى الحمد في الأولى والآخرة، وعذاب المنكرين للسّاعة، وثواب المؤمنين بها العاملين من أجلها»

الآيات (١ ـ ٩)

سورة سبأ إحدى خمس سور مكيّة كريمة تبدأ بالقول : ﴿الحمد لله﴾ يقرّر السّياق أنّ الحمد لله تعالى الّذي له ما في السّماوات والأرض في الأولى، وله الحمد في الآخرة. وهو الحكيم في قوله وفعله وشَرْعه وقَدَره وكلّ شيء، الخبير الّذي أحاط خُبْراً ببواطن الأمور كظواهرها. إنّه عزّ وجل يعلم ما يدخل في الأرض من ماء وبذورٍ وما إليهما، وما يخرج منها من ماء ونباتٍ وما إليهما، وما ينزل من السّماء من ماءٍ ورزقٍ وما إليهما، وما يصعد فيها من كلمٍ طيّبٍ وعملٍ صالحٍ وما إليهما. وهو عزّ وجلّ الرّحيم أن يعذّب بعد التّوبة، الغفور لمن استغفر ربّه وأناب. وعلى الرّغم من كلّ هذه الدلائل على الملك المطلق للذّات العليّة والقدرة والعلم فإنّ الكافرين ينكرون يوم القيامة ويقولون : ﴿لا تأتينا السّاعة﴾ ويؤمر عليه الصّلاة والسّلام أن يقسم بربّه عزّ وجلّ عالم الغيب والشّهادة بأنّ السّاعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنّ الله تعالى يبعث من في القبور، وأنّ الكافرين يعذّبون، وأنّ المؤمنين يثابون. إنّ الله تعالى الفعّال لما يريد لا يغيب عنه وزن أصغر نملة في السّماوات والأرض ولا أصغر من تلك النّملة ولا أكبر منها. إنّ كلّ شيءٍ مدوّن في الكتاب المبين، ومكتوبٌ في اللّوح المحفوظ. إنّ السّاعة آتيةٌ ليجزي الله تعالى الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات ويثيبهم. إنّ لهم مغفرةً لذنوبهم ورزقاً كريماً

في الجنّة. أمّا الّذين اجتهدوا في إبطال آيات الله تعالى البيّنات، ظانّين أنّهم يفوتون الله تعالى ويسبقونه فلا يعاقبهم لأنّه ليس ثمّة بعث ولا حسابٌ ولا جزاءٌ فإنّهم واهمون. إنّ لهم يوم القيامة شديد العذاب وأليمه.

أمّا الّذين آتاهم الله تعالى علماً وَهْبِيّاً من فضله وزادهم هدىً إلى هداهم من أصحاب محمّد ﷺ ومن أهل الكتاب الّذين اعتنقوا دين الإسلام فإنّهم يرون الّذى أوحاه الله تعالى إلى حبيبه ﷺ هو الحقّ من ربّ العالمين، وهو الّذى يهدى إلى صراط العزيز الحميد.

إنّ الكافرين المنكرين للبعث يقول بعضهم على سبيل التّعجّب والإنكار لبعضهم الآخر: هل ندلّكم على رجل يخبركم أنّكم إذا غدوتم تراباً وعظاماً ورفاتاً أنّكم مبعوثون خلقاً جديداً للحساب والجزاء! هل افترى هذا الرّجل على الله تعالى كذباً أم أنّه مجنون يقول ما لا يدرك معناه! الحقيقة أنّ الّذين لا يؤمنون بالآخرة في طريقهم إلى العذاب الشّديد يوم القيامة وهم في الدّنيا في الضّلال الأكيد.

أعميت بصائر القوم فلم يروا بأعينهم الّتى في رءوسهم ما يعنيه نظرهم إلى ما هو أمامهم وخلفهم وفوقهم وتحتهم وعن يمينهم وشمالهم من السّماء والأرض كي يستدلّوا بذلك على قدرة الله تعالى على البعث والحساب والجزاء! إنّهم إن استمرّوا في إنكارهم وشكّهم هل هم في مأمنٍ من عذاب الله تعالى في هيئة خسف الأرض بهم أو سقوط قطعٍ من السّماء عليهم؟ إنّ في هذا التّنبيه لآيةً دالّةً على قدرة الله تعالى لكلّ عبدٍ راجعٍ إلى الله تعالى بالتّوبة والإيمان والعمل الصّالح.

(٢)

« داود وسليمان عليهما السّلام»

الآيات (١٠-١٤)

وعلى الرّغم من كلّ ما أشار السّياق إليه قَبْلُ من مظاهر الملك المطلق للذّات العليّة والعلم والقدرة فإنّ الكافرين أصرّوا على كفرهم وعنادهم على نحو ما تبيّن. ويتحوّل السّياق إلى تأكيد هذه المعاني حينما يتحدّث عن داود وابنه سليمان عليهما السّلام وعن بعض مظاهر الفضل من الله تعالى عليهما وشكرهما هما وآل داود عليه السّلام لله تعالى على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة. لقد أعطى الله تعالى داود عليه السّلام من لدنه فضلاً في هيئة النّبوّة، والكتاب وهو الزّبور، والعلم اللّدنّي. ولقد آتى الله تعالى داود عليّه السّلام الصّوت الحسن إذا تلا الزّبور وإذا سبّح الله تعالى وحَمِده وهلّل وكبّر. وقد أمر الله سبحانه وتعالى الجبال والطّير بأن ترجّع مسبّحةً مع داود عليه السّلام.

ولمّا كان داود عليه السّلام يأكل من عمل يده وذلك خير الطّعام بنصّ الأحاديث النّبويّة الشّريفة فإنّ ربّ العزّة والجلال يعين داود عليه السّلام على العمل، دليلاً على شرف العمل وأهمّيّته. إنّ ربّ العزّة والجلال يلين لداود عليه السّلام الحديد فيكون في يده كالطّين أو العجين دون أن يحتاج لإدخاله في النّار أو الضّرب عليه بالمطارق. ودليلاً على أهمّيّة الجهاد في سبيل الله تعالى ينسج داود عليه السّلام الدّروع من حلق الحديد، وهو أوّل من فعل بإلهامٍ من الله تعالى ذلك، وكانت من قبل صفائح من حديد. وتنبيهاً على وجوب إتقان المسلم العمل يأمر ربّ العزّة والجلال داود عليه السّلام بإتقان عمل الدّروع وذلك بالقول : ﴿أن اعمل سابغاتٍ وقدّر في السّرد﴾ والمعنى : وقلنا أن اعمل ياداود الدّروع السّابغة الطّويلة الّتي يسحبها لابسها على الأرض كي تقي بإذن الله تعالى أسفل لابسها وقدميه. وحينما تكون الدّرع سابغةً تكون تامّةً وكاملةً بشأن الجوانب الأخرى

وبخاصّة اليدان. وكأنّنا في هذا التّوجيه القرآنيّ بصدد أمرٍ لنا نحن المسلمين بأن نُعْنَى بالسّلاح وأن نتقن صنعه ونحسن استعماله. وما أبلغ القول خطاباً لداود عليه السّلام: ﴿وقدّر في السّرد﴾ والمعنى، والله تعالى أعلم، وأحسن يا داود تقديرك لموادّ عملك، وتدبّر أمرك، وتروّ فيه وتفكّر، واجعل الحَلَق متناسقة الأحجام، وأَحْسِنْ ترتيبها ونَسْجَها، وقوّم صفوفها، واجعل الثَّقْب على قدر المسمار بحيث لا يكون صغيراً فيقلق المسمار وتتحرك الحَلَق، ولا يكون كبيراً فيكسر الحَلَق وتعيب الدّرع. إنّ هذه المعاني غيضٌ من فيض القول: ﴿وقدّر في السّرد﴾.

ويؤمر آل داود بأن يعملوا صالحاً فإنّ الله تعالى بصيرٌ بما يعملون وسيثيبهم على أعمالهم الصّالحة. وبذلك يكون كلّ مسلم مسئولاً وحده عمّا يأتي من صالح الأعمال أو سيّئها.

وسخّر الله تعالى لسليمان عليه السّلام الرّيح الملتئمة تجرى بأمره عليه السّلام عاصفةً أو رخاءً حيث أراد. ومسير هذه الرّيح صباحاً حتّى الزّوال مسيرة شهرٍ للرّاكب المجدّ، ومسيرها رواحاً من الزّوال إلى اللّيل مسيرة شهرٍ آخر. وبذلك تقطع الرّيح نهاراً مسيرة شهرين للمسافر المجدّ في سفره. وإذا كان الله تعالى قد ألان لداود عليه السّلام الحديد فإنه أسال لابنه سليمان عليه السّلام النّحاس في هيئة عين الماء. ومعروفٌ أنّ النُّحاس عنصرٌ أساسيٌّ في تصنيع الحديد. ونستطيع أن نفهم بداهةً أنّ سليمان عليه السّلام ورث أباه فيما ورث العناية بصنع السّلاح. ومن الأدلّة على ذلك ما أشارت إليه سورة النّمل من تهديد سليمان عليه السّلام لملكة سبأ بأنّها إن لم تأت إليه مسلمةً لله ربّ العالمين هي وقومها فإنّه عليه السّلام ليأتينّهم بجنودٍ لا قِبَل لهم بها. إنّ من صفات أمثال هؤلاء الجنود توافر السّلاح وإتقان استعماله.

وسخّر الله تعالى لسليمان عليه السّلام من الجنّ من يعمل بين يديه عليه السّلام بأمر الله تعالى. وإنّ الّذى يميل من الجنّ عن أمر الله تعالى له بطاعة سليمان عليه السّلام يذيقه الله تعالى من عذاب نار جهنّم الموقدة. إنّهم يعملون له ما يشاء من محاريب المساجد والقصور والمبانى، وينحتون له تماثيل النّحاس

والرّخام والزّجاج، وأوعية الطّعام الّتى يشبه الواحد منها حوض الماء ضخامة، كما ينحتون قدور طبخ اللّحم الّتى تشبه، لرسوخها وعظمها وعدم القدرة على تحريكها من مواضعها، الجبال الرّواسى. وواضحٌ حقّ الله تعالى في المحاريب، وحظّ النّفس في التّماثيل، فمن حقّ المسلم ألاّ ينسى نصيبه من الدّنيا وأن يحسن كما أحسن الله إليه، وحظّ عباد الله تعالى في جفان الطّعام كالأحواض، وقدور اللّحم كالجبال الرّواسى. وواضحٌ أنّ سليمان عليه السّلام قد سخّر الملك الّذى وهبه الله تعالى إيّاه، ولم يؤت أحداً مثله، من أجل نشر دين الإسلام في كل مكان. ومن أكبر الأدلّة دخول ملكة سبأ في دين الإسلام على نحو ما بيّنت سورة النّمل.

وكما أُمِر آل داود من قبل أن يعملوا صالحاً، أُمِروا هنا أن يعملوا صالحاً لأجل أن يعبّروا عن شكرهم لله تعالى على نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة. ويقرّر السّياق أنّ القليل من عباده عزّ وجلّ هو الشّكور لمولاه أمّا الكثير فكفور، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله تعالى العليّ العظيم. وهؤلاء الجنّ الّذين سخّرهم الله تعالى وقتاً من الأوقات لسليمان عليه السّلام لا يعلمون الغيب كما يزعمون. والدّليل على ذلك أنّ الله تعالى حينما قضى بالموت على سليمان عليه السّلام الّذى كان قائماً يصلّى في المحراب متّكئاً على عصاه ظلّ واقفاً متكئا على تلك العصى حتّى أكَلَتْها الأَرَضة فانكسرت وسقط سليمان عليه السّلام على الأرض. لقد علم الجنّ بموت سليمان عليه السّلام بعد سقوطه على الأرض، ولو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا بموته ساعة الوفاة، ولما لبثوا في العمل الشّاقّ والعذاب المهين ذلك الوقت الطّويل، ظنّاً منهم أنّ سليمان عليه السّلام لا يزال حيّاً يرزق. إنّ الله تعالى هو وحده لا شريك له الّذى أحاط بكلّ شيءٍ علماً، فعلى كلّ النّاس أن يعبدوا العليم الخبير وأن يتوكّلوا عليه وحده دون سواه.

(٣)

«كفرت سبأ نعم الله تعالى فجعلها أحاديث ومزّقها كل ممزَّق»

الآيات (١٥-٢١)

بعد أن قصّ الحقّ جلّ وعلا شيئاً من أنباء داود وسليمان عليهما السّلام، لتثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام وأفئدة المؤمنين قصّ شيئاً من نبأ سبأ الّتى كفرت نعم الله تعالى عليها فجعلها أحاديث ومزّقها كلّ ممزّق كي يتّعظ كفّار مكّة ومن شاكلهم وإلاّ كان مصيرهم مصير سبأ والكافرين أمثالهم. لقد كان لسبأ في مسكنهم باليمن آيةٌ دالّةٌ على أنّهم لا ربّ لهم إلاّ الله تعالى الّذى أسبغ عليهم نعمه الظّاهرة والباطنة. وقد تجلّت نعم الله تعالى عليهم الظّاهرة في الجنّتين عن يمين من أتاهما وشماله، وفي بلدتهم الطّيّبة الّتى كانت الغاية في الظّلّ الظّليل، والهواء العليل، والطّعام الهنيء والشّراب المرىء. وتوّجت تلك النّعم بالمغفرة للذّنوب من الرّبّ جلّ وعلا الغفور الرّحيم. لقد كان المنتظر من سبأ أن يبادلوا إحسان الله تعالى إليهم بالشّكران ولكنّهم كفروا وأعرضوا فأرسل الله تعالى عليهم سيل السّدّ وقد دمّره الله تعالى تدميراً بعد أن كان الغاية في متانة البنيان. وبعد غرق البلاد بماء السّدّ المتهدّم بدّلهم الله تعالى بالجنّتين عن اليمين وعن الشّمال جنّتين ذواتي ثمر الأراك والطّرفاء وشجر النّبق. ولمّا كان النّبق أفضل الأنواع الثّلاثة وُصف بالقلّة تأكيداً لعقاب الله تعالى إيّاهم على كفرانهم النّعم. والله سبحانه وتعالى إنّما يعاقب الكفور. وكما كان فضل الله تعالى عظيماً على سبأ في مسكنهم، كان فضله عظيماً في سفرهم من اليمن إلى الشّام. لقد جعل الله تعالى بينهم وبين قرى الشّام، الأرض المباركة دينياً ودنيويّا، قرى متّصلة، وقدّر عزّ وجلّ فيها السّير وجعله مريحاً للمسافر، فهو يقيل في قرية وينام فى أخرى، ولا يحتاج لحمل الزّاد والماء. وتوّجت تلك النّعم بنعمة الأمان، وقال الله تعالى لهم سيروا في تلك القرى ليالي وأيّاماً آمنين في كلّ الأوقات.